د. عدنان سكيك

مشكلة اللغة في الادب العربي المعاصر

تمهيـــد :

اللغة في كل عصر وعاء العلم والادب والمعرفة بشتى فروعها . فالناس يتفاهمون باللغة في حياتهم اليوميه ، ويتوارثون العلـــوم والفلسفات والتجارب الانسانية بواسطه اللغه ، ويعبرون عن مشاعر السخط والرضى والمحبة والكراهية وشتى الاحاسيس باللغة ايضا . ولا بد ان تكون اللغة قادرة على ذلك كله ، مواكبة لمسيرة الحياةوالفكر والمشاعر الانسانية وحين تفقد اللغة قدرتها على مسايرة الحياة فانها زائلة لا محالـة .

وعصرنا الحديث هو عصر التطور السريع في شتى المجالات ، فالعلوم والاداب والافكار والتقاليد .. تتجدد يوما بعد يوم . حتـى القوانيـن العلميـة والمسلمـات البديهية يصيبها شيء قليل او كثير من التعديل والتحوير . واللغـة ايضا تتطور كل عام في المجتمعات الرافيـة لتواكب حاجة الانسان المعاصر للتعبير عن شئون حياتهالفكرية والعلميـة والفنية . وما من لغـة في العصر الحديث الا اصابهـا شيء قليل او كثير من التطور ، حتى بدت الشقة متسعة بينها وبيناصولها الاولـى احيانـا .

ولغتنا ليست شاذة عن لغات العالم ، لقد طرأ عليهـا ما طـرأ على اللغات في العصر الحديث من تجدد وتطور ، فكثرت لهجاتهـا وانحرفت دلالات الكثير من مفرداتها ، وتسربت اليهـا الفاظ وصيغ واساليب لا عهد لهـا بها ، اقتضتها ظروف الحياة المعاصرة ،وبرجمة العلوم والاداب اليها ، واحتكاكهـا ببعض اللغات الحيـة كالانجليزية والفرنسيـة .

غير ان التطور لا يتم بالسرعة التي تقتضيها احتياجات الامة العربية في العصر الحديث ، فقيود الفصحى وقوانينها لا يمكنتذليلها او تجاوزهـا بسهولة لان القدمـاء اعتمدوا خصائص الفصحـــى بمفرداتها وصيغها واصواتها واعرابها ووقفوا بها عند فترة محـددة وحرموا بعدها المساس بتلـك المواصفات التي اقروها والتشريعات التـي اسنوهـا .

لكن مسيرة الحياة لا تعرف التوقف ، وتطور اللغات لا يعترف بالجمود والتحجر وكان لغات العالم تطورت من التعقيد الىالسهولة، ومن الغموض الى الوضوح ومن الخشونة الى الرقة ، كذلك تطورت العربية في العصر الحديث فنشات لغـة الكتابـة الحديثـة التـي تجاوزت شروط « الفصيح » ، من المفردات ، ونشات اللغة العاميـة بلهجاتها الحديثة في مختلف الاقطار العربية ، متجاوزة حـــدود « الفصيح » وقواعـد الاعراب ايضا ، فكانت ضرورة حتميـة للتفاهم بين العامة الذيـن لا يقدرون على استيعاب قواعد الفصحى .

وبمرور الزمـن وتجدد الحياة وتعاور الاجناس والدول ،اكتسبت لغـة العامة حيوية ودلالات وعبارات لا تتوفر في الفصحى التيانطوت على مفرداتهـا وخصائصها التي عرفت بها في فترة محددة لاتتجاوزها.

وهـكذا نشات الازدواجيـة اللغويـة التي نعاني منها لغتنـا المعاصرة ، فـلا الفصحى تتنازل عن شيء من قواعدها القديمةلتجاري التطور السريع في العصر الحـديث ولا العامية تقوى على الرقي لتصبح اداة للتعبير عن شتى شئون الحياة .

ونحـن العرب لا نستطيع آن نتخلى عن الفصحى ولا ان نتجنب العاميـة ولا ان نتجاهل تطور الامم واللغات من حولنا .فالفصحـى رغم قواعدهـا المعقدة ومفرداتها القديمة تحمل تراث امتنـا الفكري والحضاري ، وتجاهلها او التنكر لهـا يعني التخلي عـن خير مـا ابدعته امتنا في ميادين العلم والادب والمعرفة . والعاميـة تواكـب حياتنا الحديثة وامور معيشتنا ولكنها لا تملـك آلرونة التي اكتسبتها الفصحى عبر تاريخها الحضاري الطويل .

هذه هي مشكلة اللغة او مشكلتنا مع اللغـة في العلوموالاداب، الفصحى القديمـة بجمودهـا وعزلتهـا لا تلائم تطورنـا الفكـري والحضاري في العصر الحديث . والعاميـة لا تملك المرونة الكافية لتحمل اعباء العلم والادب والمعرفة المتشعبة في العصر الحديث .

فهل يمكن التوفيق بينهمـا لايجاد لغـة موحدة يتحدث بهـا العرب ويكتبون بهـا في آن واحد ؟ هل يمكن خلق لغة موحدة لهـا حيوية العامية وقدرة الفصحى ومرونتها ؟ ان هذا الهدف او المطلب يتوقف على تخلينا عن بعض العقبات التي تحول دونانطلاقالفصحى، وعليه ايضا يتوقف بدء انطلاقنـا الفكري والحضاري فـي العصر الحديث ، لان اللغـة عامل حاسم فـي تطور الامم ، وهـي الاداة الوحيدة التي تعبر بها آلامة عن مكنون افكارها ومشاعرها .

مشكلـة الفصحى :

والمشكلة اللغوية التي تواجهنا لا تخص العامية ولا تتعلق بها ، انها مشكلـة الفصحى بعزلتها وجمودهـا وملازمتها لقواعد لا تتطور ومفردات لا تتبدل . ان المشرعين والمقننين من علماء اللغـة اشترطوا للفصحى شروطا وقعدوا لهـا قواعد ، حالت بينهـا وبين التطورحتى اضحت رهينة قواعدهم ، حبيسة شروطهم .

فمن شروط الفصحى العتيدة وشرائعها القاسية التزام الاعراب، الاعراب لم يكـن ملتزمـا عند جميع العرب ، ولا سائدا في كلقبيلة،

وقواعده لم تكن مضبوطة ولا دقيقة على النحو الذي فصله النحاة ، لقد وجدت بعض مظاهر الاعراب ، فعممها النحاة على جميع كلام العرب ، فقاسوا حينا ، وابتكروا من عندهم حينا آخر ليصلوا الى قواعد مطردة مضبوطة (١) شهروها في أوجه الناس جميعا ، والزموا بها الفصحاء والشعراء والخطباء والقراء .

ويرى د . ابراهيم السامرائي أن الاعراب ثقيل لا تحتمله السليقة العربية ، ومن ثم فهو يرجع وجود لغة معربة وأخرى غير معربة يستعملها الناس دون ان يلزموا أنفسهم بعناء ضوابط الاعراب (٢) .

اما د . ابراهيم أنيس فيبدي تشككه في شيوع ظاهرة الاعراب، ويرى ان التسكين لم يكن أقل اهمية أو فصاحة او شيوعا من ظاهرة الاعراب . وانحى أن كتب النحو والصرف والتفسير والقراءات مليئة بالشواهد التي تدل دلالة قاطعة على اضطراب قواعد النحو وعدم اطرادها ومن تلك الشواهد ما كان ساكنا في موضع الوصل او الحركة ، فقول على انه تخفيف أو وصل بنية الوقف (٣) .

هذا بالاضافة الى وجود اللحن في عصر صدر الاسلام والعصر الاموي وتناقل الاخبار بوروده وشيوعه حتى عند بعض الفصحاء وفحول الشعراء والعلماء ..

وليست الدلالة الاعرابية سوى دلالة متواضعه اذا قيست بالدلالات الهامةالكثيرة في اللغة . ولا يرى د . ابراهيم انيس اية دلالة معنوية لحركات الاعراب ، فهيليست سوى اصوات يقتضيها ضرورة النطق بالساكن ، ويحدد هذه الحركة او تلك « طبيعة الحرف المراد تحريكه ، او انسجام الحركة مع ما يجاورها من حركات (٤) . »

ومعظم اللغات الحية تحدد الدلالة الاعرابية من خلال موقع الكلمة في الجملة دون اللجوء الى حركات اضافية تؤكد موقعها الاعرابي .

والاعراب بشكله القديم لا يزال عقبة كبرى تحول دون انطلاق الفصحى ، ولا تزال قواعده تعرقل تفكير العالم والكاتب والخطيب والمتحدث ، لانها تفرض عليهم التفكير في عشرات المثل والحركات والسكنات وهم يسنجمعون افكارهم لشرح احدى النظريات العلميه اوبسط احدى القضايا الانسانية . وعلى كل حال ففضية الاعراب لم تنته فصولا في لغتنا المعاصرة . فجماهير الامة تستثقل الاعراب وتتجنبه الى التسكين أو العامية ، لكنه متشبث بمواقعه في لغة الكتابة ، ويفرض وجوده في المدارس والجامعات والمجامع اللغوية، وتخصص لحفظه وتلقينه الساعات الطوال .. دون جدوى .

المفردات القديمة :

ومن مصاعب الفصحى القديمة ومشاكلها ايضا تلك الشروط التي اشترطها اللغويون للمفردات الفصيحة ، حيث اعترفوا بقبائل معدودة في قلب الجزيرة العربية وهم : تميم واسد وقيس وهذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين . اما باقي قبائل العرب (٥) في ذلك الوقت وحتى يومنا هذا فلا يعتد اللغويون بعروبتها ونقاء اعرافها وفصاحة الفاظها .

ومنذ جمعت مفردات اللغة الفصيحة واحكم ضبطها في قواميس، وشرائع العلماء لم تسمح حتى اليوم باضافة كلمة واحدة الىاللغة الفصحى ، ولا المساس بصيغة من صيغها او تحوير صوت منأصواتها، ولا زالت حتى اليوم تستشهد على الفصاحة والبلاغة بغرائب الفاظ الاعراب وشواذ اشعارهم .

ان الاسس التي قامت عليها فضية « اللغة النقية الفصيحة » باطلة من اساسها . فالعربية القديمة ـ عربية القرآن والشعر الجاهلي ـ لم تنشأ في البادية ، ولم تنبع من افواه تميم وأسد وقيس وهذيل ، وانما تجمعت عبر آلاف السنين منشتات اللغات السامية الحامية ، ومنها استمدت مفرداتها وصيغها وادواتها وجميع خصائصها العريقة .

وعرب الجزيرة لم يكونوا خلصا في باديتهم او حاضرتهم . لقد افتحم عليهم الاشوريون باديتهم ، واوغلوا فيها اكثر من مرة . ووطيء الاحباش والفرس والرومان اطراف الحواضر والبوادي مرات عدة. ولم تترك الايام والغزوات هبيله واحدة دون تهجين . كانت التجارة واحتباس المطر من اهم العوامل التي تحرك القبائل من مواطنها لتختلط بالامم والشعوب والقبائل المجاورة . وتوزيع عرب الجنوب في ارجاء الجزيرة عند ظهور الاسلام يلقي بعض الضوء على تداخل الشمال بالجنوب في العصور السحيقة . وقريش كانت ترتبط بين الشام واليمن وقلب الجزيرة في نشاطها التجاري ، ، وبها جاليات حبشية ورومية وفارسية مستقرة ، وهي اكبر سوق للرقيق رنجارنه وترويجه في الجزيرة كلها .

فاين انصفاء اللغوي او النقاء العرقي في هذا الخضم الواسع من الاختلاط والاحتكاك .

لقد وضع علماء الساميات العربية الفصحى في مجموعة واحدة مع الحبشية والعربية الجنوبية لتشابه الشديد فيما بينها .واثبت علماء الانتروبولوجيا ان جماجم وعظام عرب الشمال تشبه جماجموعظام امم الشمال ، وعرب الساحل الغربي من الجزيرة يشبهون الزنوج ، وعرب الساحل الشرقي يشبهون الهنود والفرس ، فكيف نصدق بعد هذا كله ان العربية كانت باقية في البادية على السنة حفنة من العرب الخلص ، الذين صفت دماؤهم ونقت لغاتهم ؟ وانى لهم تلك المفردات الحضارية والخصائص الحضارية في اللغة العربية وهم بداة حفاة لم ينالوا اي حظ من الحضارة او اي قسط من التعليم ؟

وفي مطلع القرن العشرين ، لم تستطع اللغة الفصحى المعتمدة ان تلبي الحاجات الضرورية الملحة للامة العربية في ميادينالفكر والعلم والادب ، فاقتحمت عشرات الالفاظ لغتنا الكتابية ولهجاتنا العامية ، واصبحت جزءا لا يتجزأ من لغتنا ولهجاتنا ، ولكن دون ان تعترف بها قواميسنا التقليدية ، لان علماء اللغة اغلقوا باب الوضع ، وانكروا وجود المولد ، وقيدوا حق التعريب، وخصصوا حكم القياس .

وقد حسمت هذه القضية لصالح لغتنا المعاصرة ، ودخلت الالفاظ الموضوعة والمعربة والمقيسة والمولدة الى حرم اللغة الفصحى، واصبحت ـ رغم القيود القديمة ـ جزءا منها ، لا غنى لنا عنه ،لان المفردات القديمة محدودة ، بينما الاغراض تتجدد ، والمعاني تتولد، والحضارة تأتي كليوم بمخترع ،والعلوم تطالب كل حين بمصطلح .

وكانت العامية المعاصرة :

ولئن ترفع القدماء عن لغة العامة ، وحرموا على المولد اقتحامحرم الفصحى ، فان الوضع اختلف تماما في العصر الحديث ، اذ لا فرق عند جمهور اللغويين المحدثين بين لغة واخرى الا في قدرتها على الاداء ودقتها في التعبير،وتلبيتها لحاجات الامة الفكرية والوجدانية واليومية، والعامية اخف على اللسان وايسر للفكر من الفصحى التقليدية ، لانها تنطلق من قواعد الاعراب ولان مفرداتها وعباراتها متداولة بين الناس يوميا ، بعكس لغة القواميس التي لا يتداولها الناس ولا يفهمونها.

---

(١) انظر : من اسرار اللغة ـ د. ابراهيم انيس ـ ٢٠٤ .
(٢) راجع : فقه اللغة المقارن ـ د . ابراهيم السامرائي ـ٢١ ـ٢٩.
(٣) مجلة مجمع اللغة العربية ـ مقال الاستاذ محمود تيمور١٣ ـ١٢٨
(٤) مجلة المجمع ١٠ ـ ٥٥ .
(٥) المعجم العربي ـ د . حسين نصار ٢ ـ ٧٥١ .
(٦) مجلة مجمع اللغة العربية ٨ ـ ١١٤ ـ الوضع اللغوي ـ احمد حسن الزيات .

ومما رفع من شأن العامية ايضا ، وجود انواع ادبية جديدة ، وثيقة الصلة باللغة العامية ، كالمسرحية والزواية والقصة والمسلسلات الاذاعية والازجال الشعبية .. ففي مثل هذه الانواع الادبية التي تعتمد اعتمادا جزئيا او كليا على العامية ، لا يمكن المجازفه باستخدام الفصحى دون التخلي عن قدر كبير من حيوية العمل الادبي وايحاءاته ، لان الالفاظ في الفصحى ذات دلالات قديمة ، مرتبطة بالعصور الاولى اجتماعيا او ادبيا ، اما الفاظ العاميه فهي وثيقة الصله بدلالات اجتماعية معاصرة ودلالات اخرى هامشيه ، يثيرها النبر والتنغيم والحركات والسكنات والكنايات المعارف عليها حديثا ، وغير ذلك من الدلالات المحورية والجانبية .

اللغة المشتركة :

وقد تمخضت لغة الكتابة في العصر الحديث عن خصائص تجمع بين حيوية العامية وقدرة الفصحى على التكيف ومرونتها في الاداء .

ولغة الكتابة الحديثة كسرت قيد (الفصيح) ، وفتحت الباب واسعا لجميع الالفاظ والعبارات والاساليب الحديثة ، كما وقفت بين الملامح العريقة الثابتة للغة الامم وما تقتضيه ضرورة الحياة من تجدد وتطور . وبذلك قضت على النزعات الاقليمية والدعاوي المغرضة التي بشرت بانفسام الفصحى وتحول لهجاتها في الاقطار العربية الى لغات مستقلة ، على غرار ما حدث للغة اللاتينية .

ولولا مرونة الفصحى التركيبية ، وقدرتها على الصراع اللغوي ، وخصائصها الراقية التي اكتسبتها عبر الالاف من سني التطور والترقي لولا ذلك لاندثرت منذ عهد بعيد ، خاصة في عهود الظلام والتخلف والتسلط الاستعماري الذي فرض ثقافته ولغته في كثير من الاحيان .

ولئن تجاوزت اللغة المشتركة حدود « الفصيح » ، فانها افادت عن الخصائص الممتازة في الفصحى القديمة ، تلك الخصائص التي هذبتها ونمتها يد الزمن ، وصقلتها وطوعتها مدارج الحضارة .

فاصوات الفصحى وادواتها وصيغها العديدة لا تزال كما كانت منذ الف عام تقريبا ، تفي بجميع حاجات الامة ، ولم تستطع لهجات الامة جميعا ان تبتدع سوى عدد ضئيل من الاصوات والصيغ والادوات التي نجد لها بديلا او اكثر في اللغة الفصحى .

ولم تدخل اللغة المشتركة اي تعديل او تبديل على اسماء الاشارة والاستفهام والموصول والضمائر والاعداد .. وادوات العطف الشرط النفي والتوكيد .. ولا تزال اللغة المشتركة تتمتع بمزايا النظام الاشتقاقي الرائع في اللغة العربية ، فما ان يجد فعل او اسم في ساحة اللغة العربية ، حتى يستثمر الى ابعد مدى بواسطة عشرات المباني والصيغ الاشتقاقية للاسماء والافعال .

ويكفي ان يقع القارىء او السامع على احد افراد الاسرة الاشتقاقية حتى يمكنه تقدير المعنى او تخمينه ، لان الاصل المجرد لجميع الفروع المشتقة يظل القاسم المشترك الاعظم الذي يوحد بين الفروع او يقرب بين معانيها الى حد بعيد ..

هذه المزايا العديدة وغيرها انتقلت الى اللغة المشتركه ، كما تمتعت بها اللهجات العامية ايضا ، ولذلك كان من السهل على اي عربي من اي قطر ان يالف اية لهجة عربية في اسابيع معدودة ، لان عبقرية النظام الاسري الاشتقاقي ، والاصل المجرد المشترك بين اللهجات العربية جميعا ، يجعله يفهم المراد وان اختلف نغم الالفاء بين اللهجات .

ويبدو ان اللغة المشتركة المعاصرة ، تشبه ما تواضع عليه عرب الجاهلية حين نظموا اشعارهم بلغة ادبية مشتركة ، لا يبدو فيها اثر للهجات المتباينة ، لان المفردات بشكل عام والصيغ والادوات موحدة تقريبا ، لا تتاثر حين تكتب ـ بالتنغيم الصوتي الذي يميز لهجة عن لهجة .

وكثير من امثال اللهجات المحلية وتعابيرها وكناياتها تسللت الى اللغة المشتركة عن طريق الكتابات الادبية والاعلامية ، ولا تحتفظ اللهجات المحلية الآن الا بأقل القليل من المفردات والادوات والصيغ التي لم يقع دمجها بعد في صلب اللغة المشتركة ، وثن يمض وقت طويل حتى تحتضنها اللغة المشتركة وتشيعها ، وهذا من اهم العوامل على بعث الحياة والحيوية في لغة الكتابة المشتركة .

فاللغة المشتركة اذن كسرت طوق العزلة الذي فرضه اللغويون على اللغة الفصحى حين اغلقوا باب الوضع ، فكل كلمة ينطقها العرب في العصر الحديث تلائم مزاجهم والسنتهم ، وتخدم افكارهم او مشاعرهم تصبح لفظة معترفا بها في القاموس الحي للغة المشتركه.

ولم يبق امام اللغة المشتركة من عقبة سوى عقدة الاعراب التي ينهرب منها جمهور الناطقين فيلجئون الى التسكين تارة والعامية تارة اخرى . وجمهور الكتاب والمثقفين يحكمون السليقة اللغوية اكثر مما يحفظون من قواعد النحو . ومع ذلك فهم لا يخطئون الا بمقدار ما نجد من شواذ في شواهد النحو .

لغة الادب :

ميزنا فيما سبق بين لغات ثلاث : الفصحى القديمة ، واللغة المشتركة الحديثة والعامية ، وبينا ان وشائج القربى تجمع ما بين اللغات الثلاث ، وان عرى اللقاء لم تنفصم بين اللغات الثلاث ، فبينها من اوجه التشابه اضعاف ما بينها من اوجه الاختلاف .

ولغة الاديب المعاصر تعتمد اساسا على اللغة المشتركة المعاصرة ، ولكنها لا تقطع صلاتها بالعامية والفصحى القديمة . وحتى عهد قريب ـ اعني الى عهد شوقي وحافظ والرصافي واليازجي ـ كانت لغة الادب عامة والشعر خاصة تعتمد على لغة القواميس القديمة ولغة الادب القديم . انطلاقا من المبدأ الخاطىء الذي يحصر لغة العرب وادب العرب في بوادي الاعراب ـ اما اليوم فلم يعد احد من الادباء او الكتاب يفاخر بالغريب او الفصيح القديم لان مهمة اللغة في الادب حددها النقد الحديث كوسيلة لا غاية في ذاتها ، ولان الانواع الادبية الحديثة اثرت لغة الحياة على لغة القواميس .

والنقد القديم قام على اساس من محاباة الادب القديم ، فلغته هي المثلى واساليبه وقيمه هي النموذج المحتذى ، ولذلك فجل ادبنا القديم يدور في فلك الشعر الجاهلي من حيث اللغة والموضوعات والتشبيهات والمجازات ..

والتقليديون المحدثون ارادوا اعادة الكرة ، بتقليد لغة الادب القديم وموضوعاته واخيلته واساليبه ، ولكن المقاييس الادبية الحديثة وضعت مواصفات للادب ولغته واساليبه تختلف عن تلك التي تواضع عليها القدماء . لقد اختلفت البيئة والثقافات والاذواق ، وبعدت الشقة بين عصرنا والعصر الجاهلي ، وجدت في حياتنا المعاصرة انواع ادبية لم تكن موجودة في الادب القديم ، وخضع ادبنا لمعايير نقدية لا يعرفها النقد القديم ، فاثر ذلك كله على لغة الادب المعاصر.

وعلى كل حال فلغة الادب في العصر الحديث تتجنب معجم الالفاظ الميتة وتتصل اتصالا وثيقا بلغة الحياة ، لغة الكتابة والحديث لجميع الطبقات الشعبية المعاصرة ، بالاضافة الى المعجم الخاص الذي يكونه الاديب باطلاعه وذوقه الخاص .

ولا يعني هذا ان لغة تراثنا الادبي لم تعد تجدي نفعا ، وان على الاديب ان يتنكر لتراثنا اللغوي والادبي القديم ، فالاديب المعاصر لا يشتد عوده ، ولا تقوى ملكاته ولا يتبلور اسلوبه وشخصيته الادبية الا اذا وثق صلته بلغة التراث وبادبنا القديم .

ولغة الادب المعاصر تجنح الى الهمس والرمز والتصوير والتعبير غير المباشر فاللهجة الخطابية ، والالفاظ الفخمة الجزلة لم تعد صالحة للغة الادب المعاصر . ان اغراض الاديب القريبة والبعيدة ، وعواطفه

المتباينة يجب أن تكون مغشاة بضباب خفيف ، لا يجيب الرؤية ، ولكنه يثير جوا من الغموض ، يضفي رونقا وجمالا على نمط الاسلوب الادبي. يبعد بها عن الابتذال والتكرار الذي الفته الاذن .

على أن الايغال في الغموض ، والنمادي في الرمز يفضيان الى ابهام يحجب الغاية القريبة والبعيدة للاديب . فالتعبير المباشر سطحيه لا تليق بالاديب ، والابهام الذي يصل حد الاحاجي والالغاز ، يجعل العبارات والكلمات ثقيلة متكلفة ، لانه يجهد الفكر ، ويحرم القارىء من المتعة الذهنية والروحية التي مر بها الاديب ، ويفوت عليه فهم الغاية او الهدف الاسمى لعمله الادبي .

لغة الشعر :

لم تعد لغة الشعر القديم مناسبه في العصر الحديث . ولم تعد معايير الفحولة والفخامة والجزالة صالحة للغة الشعر الحديث. والاديب اصبح يملك زمام امره ، ومقدرات فكره ووجدانه ، وله الحرية التامة في التعبير عن حقيقة مشاعره لا يمدح وهو كاره للممدوح ، ولا يتزلف خوفا من البطش، ولا ينمق طمعا في النوال. لغة مثل ذلك الاديب رخيصة مزيفة مبتذلة في العصر الحديث .

ولعل فهمنا الصحيح لمهمة الادب والاديب في العصر الحديث، غير من نظرنا الى لغة الادب ، فليست مهمة الشاعر ان يكون نابعا ذليلا للخليفة واقفا ببابه متمسحا باعتابه كما كان شانه قديما . للشاعر المعاصر حرينه الشخصية وكرامته ورزقه المستقل عن اعطيات الخليفة وهباته ، فلغته ليست ذليلة خانعة خنوع نفسه لغته حرة كحريته الشخصية ، تعبر عن ذاته ومشاعره الحقيقية ، تبلغ رسالته في الوجود ، وتجاربه في الحياة ومشاكله ومشاغله الوجدانية .

ولغة الشاعر قديما متانقة منكلفة ، لترضي اذواق اللغويين والبلاغيين الحافين ببلاط الخليفة ، فمجازاتها وكناياتها واخيلتها على غرار الصور القديمة ، والفاظها تسمو وتكبر في اعين اللغويين كلما حافظت على المعجم الجاهلي القديم ،اما اليوم فلغة الشاعر هي اللغة التي تنبع من وجدانه ويرددها لسانه، دون تزييف او زخرفة متكلفة او فصاحة مصمدة . لغة الشاعر المعاصر تحمل بين طياتها دلالات الحياة المعاصرة ، باشعاعاتها الحيه المتجددة ، التي تطل من وراء الكلمات والعبارات وتهمس في الاسماع والقلوب .

ولغة الشعر المعاصر ليست شتاتا من المعاني والافكار والمشاعر والابيات المتفرقة التي لا تسلم الى شيء ، ولا تدل الا على خواطر مبعثرة وعواطف مشتتة ، ومعاني مجزأة فمن وراء اللغة والافكار والاحاسيس والصور والموسيقى .. خيال يجمع الشتات ، ويؤلف بين الجزئيات (٧) بحذف ما يجب حذفه .ويبقي على كل ما يلائم العمل الادبي ، ينظم العاطفة ، ويحدد الايقاع ليخلق صورة فنية متكاملة ، ذات اطار واضح ، ومضمون متكامل وغاية محددة .

ولعل الحوار الذي دار بين الشاعرين الانجليزيين ، كولردج ووردث ورث حدد المعالم الادبي للغة الشعر في العصر الحديث ،كما اثار قضايا نقدية وادبية لا زالت تثار حتى الان تتعلق بلغة الشعر وشكله ومضمونه ، واثر الفكر والعاطفة والخيال فيه ، وغير ذلك من الموضوعات الادبية النقدية .

وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى كثيرا من كتابنا وشعرائنا القدامى، وانقسم فيها الادباء والنقاد الى فريقين : احدهما يؤيد اللفظ وتجويده ويجعل البلاغة كلها في حسن اختياره وسبكه وايقاعه ... والاخر يؤيد جودة المعاني وتوليدها وتعميقها وتلاحمها .. الخ وقد تجاوز النقد الحديث هذه القضية ، ولم يعد لها وجود في الشعر ايضا ، فاللفظ والمعنى كل لا يتجزأ في نظر كولردج (٨) ، والكلمة المفردة لا وجود لها في الكلام او الاسلوب فنحن لا ننطق ولا نكتب كلمات مفردة منفصل بعضها عن بعض ،اننا ننطق جملا او دفعة من العبارات في النفس الواحد ، لا نتوقف حتى يكتمل المعنى الجزئي في ذهن السامع او القاريء ، ثم نصل اول الكلام بآخره في جمل وفقرات عديدة متتابعة الى ان تكتمل الفكرة ويستوي الافهام .

فالكلمه بمعناها جزء من هذا السياق المتصل المؤدي ـ في الادب ـ الى مراميه الجزئية والكلية .

ويرى الناقد الانجليزي ابركرمبي اننا قد نتحدث عن معنى الكلمه او الجملة وقد نفرد الحديث عن موسيقى الكلمة او الجملة وملاءمتها للموضوع مثلا ، ولكننا لا نقصد حينذاك سوى التقسيم النظري فحسب، اما عمليا فلا يمكن الفصل بين هذه الاجزاء (٩) لانها تتلاحم في عرى لا انفصام بينها .

كذلك لا يمكن التحدث عن لغة الشعر او النثر بمعزل عن الشكل او المضمون . فاللغة والشكل والمضمون تضافر جميعا للوصول الى غاية واحدة يشارك فيها التشكل والمضمون واللغة في وحدة لا سبيل الى الفصل بين اجزائها الا نظريا .

فقد نتحدث عن لغة القصيده مثلا ، ايقاعها وانسجام اصواتها وملاءمتها للموضوع ومطابقتها لانفعال الشاعر .. وقد نعجب بدقة المجاز او روعة التشبيه او طرافة الكناية غير ان ذلك كله لا يصرفنا عن الغاية للقصيدة او الدراما الشعرية ، فاللغة مادة الادب او رمز يوصلنا الى غايه الادب ، وتجويدنا باللغة العربية واهتمامنا بها لا يعني انها غايتنا من الادب ، وما اللغة سوى جزء واحد فقط من اجزاء العمل الادبي ، تتضافر مع المضمون والشكل لبرز العمل الادبي في احسن صورة .

لغة النثر الادبي :

وهذه اللغة تختلف دلالتها وايحاءاتها عن لغة الشعر ، لان طبيعة الشعر تختلف عن طبيعة النثر ، فموضوعات الشعر اكثر تحديدا ، وعاطفته اكثر حدة ، ومجال الخيال فيه اوسع وارحب ، والكلمات اكثر اثارة ، وموسيقاها اوضح واوقع في النفس من موسيقى النثر .وعلى العموم فاللغة والموضوع والمضمون والفكر والعاطفة .. اكثر تحديدا وتركيزا في الشعر منها في النثر .

كذلك يختلف النثر الادبي عن نثر الاحاديث اليومية ، ففي مجال الادب يخضع النثر لانسفاء الاديب وتوجيهه الفكري والوجداني ، وهو عند (ت.س.اليوت) اقرب الى الموضوعية (١٠) منه الى الذاتية والاحاديث العابرة اليومية . لان الكاتب الاديب لا يكتب كل ما يعن على باله ، ولا يعبر عن احاسيسه بشكل تلقائي مباشر ، وانما عليه ان ينظر حتى تتضح التجربة وتستقيم الفكرة وتحدد الغاية وتاخذ شكلها الملائم ... عندئذ يبدأ التعبير .

وكتاب الدرجة الثانية وحدهم الذين يعبرون عن تجاربهم تعبيرا مباشرا ، لذلك تلمح تسيبا في لغتهم وحوارهم وعاطفتهم وافكارهم ومضمون اعمالهم الادبية . ولغة هؤلاء اقرب الى لغة رجل الشارع الذي لا يضبطها ضابط فني او وجداني .

اما لغة الاديب المبدع الخلاق فيعرف كيف يوجه الالفاظ والعبارات بفكره ووجدانه وخياله ليخلق صورة ناضجة مكتملة لتجربته الادبية .

ولعل معجم الالفاظ يكون واحدا او متقاربا في الشعر والنثر والاحاديث العابرة ولكن ذوق الاديب وثقافته وعاطفته تتحيز وتوجه وتهيمن ويتفاوت اسلوب الاديب من نوع الى آخر من الانواع الادبية المعاصرة ، كما يجب أن يتنوع من موقف لآخر ، من شخصية لاخرى

---

(٧) في النقد الادبي ـ د. عبدالعزيز عتيق ـ ١١٩
وانظر في النقد الادبي الحديث . محمد عبدالرحمن شعيب ـ ١٧٩ـ١٩٨

(٨) كولردج : محمد مصطفى بدوي ـ ٨٢ ـ ٩٨ .

(٩) قواعد النقد الادبي ـ لاسل ابركرمبي ترجمة محمد عوض محمد / ٣٩ وما بعدها .

(١٠) ما هو الادب ـ د . رشاد رشدي ـ ٧٠٥ .

محيي الدين صبحي

الادب والمستقبل العربي

خطوط ... وملامح

الادب والمستقبل العربي ، المستقبل العربي والادب ، الادب العربي المستقبلي ، مسميات كلها بمعنى . واخشى من القول ان افتتحت الكلام بالقول ان ادبنا ما لم يكن ادب المستقبل فلن يكون عربيا قط .

لا اقصد بهذا معنى الخلود الادبي او اي معنى يستشرف الابد. اقصد فقط ان الادب الحالي المكتوب باللغة العربية يجب ان يحمل في ثناياه ملامح المستقبل العربي المنشود ، اذا اراد ان يحمل هوية قومية.

الادب الذي يحمل هوية قومية هو وحده ادب المستقبل . اي الادب المرشح لامرين :

ان يعيش بعد صاحبه ، وان يفعل فعلا يغير الواقع .

هنا يجب التوقف قليلا لتحديد مدى فاعلية الانفاظ ، تحديد مجال عملها ـ مما سيحدد بالضرورة مدلولاتها .

لدينا اربع كلمات تستقطب تفكيرنا في هذه المقالة :

الادب : الشكل الفني الذي تؤدي فيه المعاني والمشاعر ، او اساليب التفكير والتعبير .

العربي : تحديد الهوية القومية للادب .

المستقبل : اي مصير امة العرب .

الفاعلية الادبية : اي قدرة الكلمة على تغيير الواقع .

الفاعلية الادبية :

وبما ان الفاعلية الادبية هي الهدف المنشود ، فلا بأس من ان نبدأ بتقصي معانيها لان الاندفاع في تحقيقها او المبالغة في تقويمها يؤديان الى افدح انواع الضرر بالادب واثره على السواء . فقد ارتفع بعيد هزيمة حزيران شعار : « الكلمة رصاصة » . واعجب هذا

واللغة المفضلة في جميع المواقف والانواع الادبية هي لغة الحياة المعاصرة دون سواها (11) .

ولغة الكتابة المعاصرة طوعت لانواع عديدة من الادب المستحدث : كالمسرحية والرواية والقصة .. ويستطيع الاديب ان يستخدمها دون غضاضة في جميع اعماله الادبية فيما عدا الجانب القائم على الحوار ، لاننا لا نألف الحوار ولا نستسيغه الا اذا قرأناه كما تعودنا سماعه ، اعني باللهجة العامية . وتفصيح العامية او المساس بشيء من تركيبها يعني الاخلال بالدلالات الاجتماعية والنفسية والرمزية التي اكتسبتها خلال تداولها اليومي بين الناس . ومن هنا نجد كثيرا من الفتور والضعف في الحوار الذي يصطنع الفصحى في اي عمل من الاعمال الادبية .

وكتابة الحوار بالعامية لا يباعد بين اللهجات في الوطن العربي ، بل العكس هو الصحيح ، فكتابة الحوار بالعامية في بعض الاعمال الادبية يهدم الحواجز القائمة بين اللهجات المختلفة ، ويغذي ثروتنا اللغوية المعاصرة ، ويبرز اوجه الشبه العديدة الموجودة بين مختلف اللهجات في الوطن العربي .

الخلاصة :

يتضح لنا من القضايا اللغوية التي عرضناها بايجاز ، ان مشكلة اللغة العربية سواء أكانت في الادب او العلم او الحياة تنحصر في جمود الفصحى القديمة عند خصائص ومواصفات حددها القدماء ، والزموا بها جميع الناطقين بالعربية في عصرهم والعصور التالية ، وكأن اللغة لا تبدل ولا تتطور .

وما دمنا نقف بتفكيرنا اللغوي عند الحدود التي وضعها القدماء ، فمشكلة اللغة العربية في الادب وغيره تظل قائمة ، وتتفاقم يوما بعد يوم ، لان اي لغة في العالم تتطور بتطور الامة ، وتواكب مسيرتها الفكرية والوجدانية واليومية ..

والامة العربية مقبلة على نهضة كبرى في جميع الميادين ، ولا بد ان تطوع اللغة لحاجاتنا العصرية ، ولا يمكن ان تظل بدوية صحراوية ، حتى ولو سلمنا بأن اصولها الاولى كانت كذلك . فلغات العالم تنتقل من خشونة البداوة الى رقة الحضارة ، ومن التعقيد الى البساطة ، ومن الغموض الى الدقة والوضوح. ولغتنا هي احدى اللغات التي ينطبق عليها ما ينطبق على جميع اللغات في العالم .ولا خوف عليها من التطور والنماء ، بل الخوف كل الخوف من الجمود المؤدي الى الزوال .

بقي ان نقول ان تطور لغتنا رهين بتطور الفكر الخلاق المبدع في امتنا ، وسوف نشعر بحاجتنا الماسة لتطويرها كلما خطونا خطوة في مدارج الرقي والحضارة والعلم والادب .

والله نسأل ان يلهم امتنا التوفيق والسداد .

د . عدنان يوسف سكيك
جامعة الفاتح ـ كلية التربية

(11) من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ـ د . محمد خلف الله احمد ـ ٧٩ وما بعدها .